النقد الأدبي العربي من الانطباعية إلى المناهج الغربية
(دراسة في الهوية والانتماء)

الدكتور: بن حمو سليمان

المركز الجامعي تمنراست

ملخص :

يأتي هذا المقال ليبرز أن للنقد الأدبي العربي هوية وانتماء منذ نشوء النقد الانطباعي إلى ظهور المناهج الغربية ، ويتساءل من خلال هذه المسافة الزمنية الحبلى بالمعارك النقدية ، لماذا لم يصل النقد العربي إلى بناء نظرية نقدية عربية تستقي من نبع تراثنا الثقافي والأدبي ، وتتطلع إلى الأخذ من المناهج الغربية الحديثة ، بما يمكن ان يرتقي بنقدنا العربي ؟

Résumé :

Cette étude s'inscrit dans une perspective de mise en lumière de l'identité et l'appartenance de la critique littéraire arabe depuis la naissance de la critique impressionniste jusqu'à l'apparition des méthodes critiques modernes chez les occidents.

Tout au long de cette période, pleine de conflits en critique, notre modeste travail s'interroge sur la question de savoir pourquoi la critique arabe n'arrive pas à construire une théorie critique arabe propre à elle. De telle théorie s'inspirant, bien entendu, de notre patrimoine culturel et littéraire, et se nourrissant des méthodes critiques occidentales modernes.

====

توطئة:

لقد شكل النقد الأدبي عند العرب في عهوده الأولى القاعدة الأساسية في احتضان الأدب والأخذ بيده وخاصة الشعر، بيد أن مواجهة ذلك الأثر قام على ذوق بسيط اصطلح على تسميته عند النقاد المتأخرين بالانطباعية أو الذوقية .

وقد شق النقد الأدبي العربي طريقه دون توقف، سرعان ما تحول مع تعاقب الأزمان والأيام إلى مجموعة نقد منهجي، أزدهر عند عدد من النقاد ، كابن قتيبة ،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وابن سلام الجمحي، والجاحظ وابن المعتز وقدامة ابن جعفر، وأبي هلال العسكري، والآمدي وابن رشيق القيرواني ، وعبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجي. وعند هؤلاء أصبح للنقد العربي رؤية حداثية للأشياء، تولد عنها أن كل جديد سيصير قديماً في العهود الموالية، ومن هنا أجد أن العرب ترسخ فيهم مبدأ الانتماء انطلاقا من ظهور الإسلام، بتغيير الأفكار وأتساع الآفاق وتسامي المبادئ بذلك الانقطاع عن تلك الفترة الجاهلية فكرياً ونقدياً.

وهكذا أستمر النقد العربي بعطاءاته عبر مختلف الحقب والأزمان إلى أن جاء العصر الحديث، حيث ارتمى النقد الأدبي طواعية في أحضان مدارس النقد الغربية، وأصبح جل النقاد العرب يطبقون النظريات الحديثة من بنيوية وتفكيكية وأسلوبية على الإبداع العربي، مبررين ذلك بأن هذه المناهج أو الإجراءات النقدية نتاج حضاري وأن الحضارة الإنسانية واحدة، دون محاولة البحث والتنقيب في التراث الثقافي العربي.

التحقيب النقدي العربي :

لقد تبلور مفهوم " الانطباعية " عند الملتقى العربي بتلك الحقبة الزمنية التي سبقت مجيء الإسلام الحنيف ألا وهي العصر الجاهلي لأن الإبداع النقدي فيها ولد بسيطاً وساذجاً.

لذلك يفيد التحقيب في النظر إلى الفعل الإنساني الأدبي والجمالي بحيث يضبط أزمنة الخصب الإبداعي أو أزمنة جدبه ، وكذلك معرفة متى وأين ملأ الإنسان زمنه بفعل يمتد أثره في حياته امتداداً بعيداً أو قصيراً، ومن ثم يتسنى له أن يموقع فعله الأدبي والفني وغيره ، أما في سيرورة تاريخه الخاص أو تاريخه العام أو التاريخ الإنساني الخاص بذلك الفعل"1.

فالأسبقية في ابتكار الأثر يعد قوة وأس صلب تتفرع عنه أحكام ومناهج أخرى يشفع فيها للأول بأنه المبتكر والأصل، فالانشغال بأصل العمل الفني يمكن تمييزه كونه عملاً أكاديمياً- فالأكاديميون وحدهم يعنون بالموضوع الذي "تتحدر" منه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأشياء، وتظهر وتتخذ شكلها الأولي . ومن المؤكد أن الأكاديميين وحدهم يرغبون في معرفة سلالة الأشياء ونسابتها وتاريخها2.

ففي اعتقادنا أن النقد الانطباعي عند العرب قد أصل مسألة الأبوة مما أدى إلى فتح المغلق فيما بعد، لأن تلك الرؤية البسيطة لفهم ذلك الأثر الأدبي يعتبر هو الوجه الآخر لصورة الفن، وذلك بما يصطنعه من تفسير لصور النشاط الأدبي ، أو تكميل لوجوه الإدراك العلمي، أو توجيهه للكاتب .

ومن خلال هذا نجد أن النقد العربي واصل نشاطه عبر العصور المتتالية، ويرجع ذلك لظهور أعمال إبداعية فنية ، جذبت انتباه الإنسان، فأطربته وأثارت فيه شعور الإعجاب والدهشة ، فلم يتمالك نفسه أمام هذا السحر، وهذه الحكمة ، حتى قال بعضهم " الشعر أنقد من السحر" فقد كان عصر ازدهار الأدب العربي في القرنيين الثالث والرابع الهجريين عصراً مليئا بالنقد والمعارك النقدية واختلاف النقاد بين قديم وجديد، وبين تقليدي ومجدد، فلم يكن عصر أنفرد به عمالقة الشعر يتردد فيه صوتهم وحدهم، بل شاركهم عديد من عمالقة النقد4.

ففي العصر العباسي أخذ النقد يفلت من الانطباعية الذبيانية ويتأثر بالمجاري الفكرية التي عرفت في العصور العباسية من فلسفة وكلام وتصوف، وقد وصلت إليه هذه المجاري المختلفة من منابع أجنبية، خصوصاً الثقافة اليونانية، فهي ما نقله العرب عن اليونان من فلسفة، وعلم وكان للسريان اليد الطولى في نقل العلوم، وقد عرفوا الشرق بفلسفة اليونان وعلومهم . وهذه المجاري الفكرية قد تسربت إلى النقد العربي أكسبته قوة فيما بعد ، لموصلة مشواره . والسؤال الذي يرد على الخاطر الآن هو: هل عرف النقاد العرب اصطلاح " النقد الأدبي " الشائع الآن واستعملوها....؟.5

إذا عرجنا إلى علوم العربية وتصفحنا جميع تقسيماتها عند المتقدمين من علمائنا فإننا لا نجد "النقد الأدبي" واحداً منها، ولكن ذلك لا يعني بحال من الأحوال أن العرب كانوا يجهلون النقد الأدبي6.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نؤكد ذلك لأنه لا يوجد في تراثنا الأدبي كتباً للمتقدمين تطرقت للنقد الأدبي من زوايا وجوانب مختلفة ، فمن هذه الكتب على سبيل المثال لا الحصر كتاب طبقات الشعراء لابن سلام، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وعيار الشعر لابن طباطبا، والموازنة لابي تمام والبحتري للآمدي، والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني، والأغاني للأصفهاني، والذخيرة لابن بسام، فالدارس لمثل هذه الكتب حري بأن يرى أن العرب قد عرفوا النقد الأدبي معنى لا إسماً ، أو عرفوه كما يقول الأستاذ طه إبراهيم كنهها وحقيقة، وان لم يعرفوه، كما يكون عنواناً لطائفة من المسائل.7

وهذا يحيلنا إلى عدم اهتداء العرب إلى تحديد المصطلح الفني ، إلا في العصور المتأخرة، حيث أن الشاعر الجاهلي لم يكن يعرف بما يسمى بالبحور الشعرية، وأن أوزان الشعر يضعونها حسب الاقتضاء، كل وزن منها يوافق نوعاً خاصاً من الشعر، كموافقة وزن الطويل وطواعيته للشعر الحماسي، وكموافقة وزن الوافر للفخر، والرمل للفرح والحزن ، والسريع لتمثيل العواطف وهكذا...8

فارهاصات المصطلحات الفنية في شعرنا العربي القديم عديدة ومتعددة كوجود الأصول الرومانسية في الشعر الجاهلي حيث كانت تتعلق بالتأمل في الحياة والموت ، والخير والشر، والشباب والمشيب ، والطبيعة، فقد حاول هاؤلا الشعراء التعمق في أسرار هذه الموضوعات (...) فلم يقفوا إلا عند ظواهرها، فلم يشفوا غلة نفوسهم الظمأى لمعرفة المجهول ، فظل الموت شبحاً يلاحقهم، فأضطرهم في النهاية إلى الاستسلام لإرادته ، والتسليم بما تكتبه لهم الأقدار ، فعلل مثل هذه الظواهر بما يمتلكه من تجربة ، وما توافر له من ثقافة ومعتقدات ،لذلك على هذا الضرب من الشعر : الأصول الأولى للاتجاه الرومنسي ، لأن الشعر لم يتعمق في الأشياء ولم يعبر عن مشاعر وأحاسيس، وعواطف تتسم بالنضج كما كان يفعل الشاعر الرومنسي في العصر الحديث .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبذلك نقول أن البيئة المعنوية هي الحياة التي يترعرع الأدب في كنفها ويحي في ظلالها، وهي في الأقطار الإسلامية سواء في العقيدة أو التشريع أو في الأعراف والتقاليد أو في الثقافة التي تتمخض عنها كثيراً من المقومات الأخرى تصدر عن حوض واحد10.

ومن خلال ذلك يتحدد الفارق الأساس بين التوجه الديني والتوجه العلماني، والفرق النوعي الأساسي بين النمط المجتمعي الحضاري الإسلامي والنمط الأوربي وخصوصيات كل من الأدبين العربي والأوربي.11

ظاهرة المثاقفة والمركزية الغربية :

إن المثاقفة بين الأمم ، ضرورة تفرضها الرغبة في التأثير والتأثر بحث عن الحكمة، واسترشادا بالرؤى النيرة، والأفكار الخلاقة من أجل تشييد بنية ثقافية متماسكة وواعية بذاتها، وعارفة ما لدى الآخرين من منجزات وأفكار يمكن توظيفها، أو رفع المناعة ضدها، لم لها من أثر في سلب الهوية ، وطمس معالم الخصوصية12 .

وبمقتضى الطبيعة البشرية المبنية على النقص ، وعلى البحث عن الجديد، ومعرفة الآخرين قامت الثقافات البشرية على المثاقفة فأثرت وتأثرت واختلفت درجات ذلك التأثير والتأثر باختلاف الرصيد الحضاري والشعور بقيمة الذات والحفاظ عليها، فذابت ثقافات في نسيج ثقافات غالبة وفقدت هويتها كما حدث مع غالب ثقافات العالم الثالث13 .

وذلك ما لمسناه عند ارتمى النقد العربي طواعية في أحضان مدارس النقد الغربية ، وأصبح جل النقاد العرب يطبقون النظريات الحديثة من بنيوية وتفكيكية وأسلوبية على الإبداع العربي، مبررين ذلك بأن هذه المناهج أو الإجراءات النقدية نتاج حضاري وأن الحضارة الإنسانية واحدة ، دون محاولة البحث والتنقيب في التراث الثقافي العربي ، مما جعل الثقافة العربية تعاني ضمن ما تعاني، من غياب نقد عربي أصيل، يعتمد في طروحاته على رؤى تستند إلى مصادر التراث الثقافي العربي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التي تمتلك الأسس المعرفية الصالحة لمواجهة النصوص الإبداعية الحديثة، ومن هذه ما تركه الأسلاف من أمثال : عبد القهار الجرماني وابن قتيبة والجاحظ وابن سينا وابن رشد- وغيرهم .

ومن خلال ذلك نجد نقادنا في العصر الحديث ابتعدوا عن الهوية والخط التاريخي لما يوجد في تراثهم القديم من ذخائر أدبية عجيبة، وكنوز فكرية أصلية، وراحوا يفتشون في آداب غيرهم عن آليات نقدية تخلصهم من ربقة الماضي القديم متناسين أن النقد لا ينبت إلا في منبته الأصيل، ولا يعبر إلا عن روح الأمة ووقعها الفكري والحضاري، وفي هذا يقول الأستاذ الدكتور غسان غنيم " لابد لنا من ربط النقد بالفكر والحالة العامة ، لأن النقد فعالية تعد محصلة حقيقية لروح الأمة وواقعها الفكري والحضاري، فالنقد كالفكر لابد له من الانتماء إلى مناخ عصره ونظامه"15.

وهناك من يريد أن يبعد النقد العربي عن إنتمائه وهويته ضمن دائرة الثقافة والأدب بتساؤله المحيط حول اوجود نظرية نقدية عربية فيجبينا الدكتور غسان غنيم لقوله " هناك من نقاد العرب من يرى أن النظرية العربية مجرد طرافة في هذا العصر العولمي، فالجميع أسهموا في وضع نظرية نقدية عالمية ، إذن فمن عدم الدقة أن نتحدث عن نظرية نقدية عربية فالفكر بات إنسانيا، وعنه تصدر النظريات النقدية ولا يمكن لقومية مهما تدعي امتلاك الفكر العالمي وبالتالي صيغ النقد وحركته بصيغة قومية ".16

من خلال هذا القول، نستنتج أن العرب كان لهم الريادة أيضا في الممارسة النقدية والثقافية ، لأن النقد يستمد من خلال تصور خاص للحياة ، شكله النمط الحضاري الذي يعيشه مجتمعه، ومن ثم يحل مشكل النص الأدبي في ضوء التصور وأن النص الأدبي والمعارف القديمة كانت مساعدة في الأخذ من المناهج الغربية والانفتاح عليها وان النقد العربي في العصر الحديث عند اطلاعه على المناهج الغربية لم يغفل القيم الثقافية والقومية.17

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولهذا لم تكن مدرسة الديوان خاضعة في كل اتجاهاتها النقدية لما أملاه الفكر النقدي الإنجليزي في بيئة الرومنتيكيين أو غيرهم إذا كانت للديوانيين نظراتهم الخاصة وارتباطهم بتراثهم العربي ، كما كانت تتصل بروائع الشعر السابقة التي تقرب من ذوقها ، مما قرأته عند " ابن الرومي" و" المتنبي" و" الشريف الرضي" وأبي العلاء " ولم يغفل هؤلاء الرواد في لحظة اتصالهم بالثقافة الأوربية عن النظر في القيم الثقافية ، القومية،بل نراهم وهم يبذلون أقصى جهودهم في تطوير هذا التراث القومي والعمل على توثيقه لربطه بالمجرى العام للثقافة الإنسانية "18.

وحتى تكون الاستفادة من التراث النقدي العربي، لابد من دراسته دراسة عميقة والتعامل معه بفعالية إيجابية تراعى فيه الجانب التاريخي للمشاكل التي طرحت عليه سابقاً، والانطلاق من أرضية في البحث والإبداع .

وحتى لا يغتر أولئك الذين يتمسكون، بمبادئ الحداثة الغربية ويهزأون من النقد الانطباعي، ويبتكرون قيمة التراث العربي " فلا بأس أن يراجعوا بعض معالمه في نظرية البديع لابن المعتز، ونظرية النظم لعبد القهار الجرجاني ونظرية عمود الشعر للمرزوقي ، ونظرية الأسلوب للجاحظ وأسس النقد التأثيري عند أبن طباطبا وأسس المنهج اللغوي عند عبد القهار الجرجاني، وأسس النقد الموضوعي عند قدامة بن جعفر، وعند أكتمال صياغة المنهج النقدي العربي على هذا النحو الذي يكاد يجمع كل مقوماته وخصائصه الجوهرية، يقف الناقد العربي على أرضية صلبة محددة موقفاً نقدياً عميقاً من جميع هذه المناهج والنظريات الأوربية، ويتعامل معها من باب التفاعل الذي يأخذ سمة الخصب والاغتناء لا التقليد والتبعية .

أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نحافظ على هوية تراثنا النقدي والأدبي في إطار التعامل مع المناهج النقدية الغربية، إذا لم نفكر بجد وصدق في إبداع منهج نقدي عربي يغترف من القيم والثقافة العربية الأصيلة والتفتح على المناهج الغربية19 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هوامش :

01-أحمد بو حسن ، العرب وتاريخ الأدب، دار تويقال للنشر – المغرب الطبعة الاولى 2003.ص/01.49-

02- هيو سلقرمان، نصيات- بين الهرمنبوطيقا والتفكيكية.ترجمة حسن نظام وعلي حاكم صالح، الطبعة الأولى 2002. الدار البيضاء المغرب ص/83.

03- محمد الصادق عفيفي، النقد الأدبي الحديث، مكتبة الرشاد- دار الفكر الطبعة الأولى 1971 ص/14.

04- النقد الأدبي الجزائري الحديث، عمار بن زائد – المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر-1990، ص/25.

05- ثريا عبد الفتاح ملحس، القيم الروحية في الشعر العربي- دار الكتاب اللبناني- بيروت.

06- الدكتور، عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب – دار النهضة العربية بيروت- لبنان – ص /10-11.

07- المرجع نفسه ،ص /11.

08- المرجع نفسه ،ص /15.

09- حسن دخيل عباس الطائي، الوصول الرومانسية في الشعر الجاهلي { شعر التأمل} مقال من الإنترنت على الرابط

.www.uobqbylon.edu.iq/.../serves_showarticde.aspx?...

10-إبراهيم رماني – أوراق في النقد الأدبي ، دار الشهاب للطباعة والنشر- الجزائر – الطبعة الأولى 1985م ، ص .99

11-المرجع نفسه. ص/.99

12-د.صالح بن سعيد زهراني، العقل المستعار بحث في إشكالية المنهج في النقد الأدبي العربي . مقال من الانترنيت على الرابط : https://uqu.edu.sa/majalar/shariamag.

13- المرجع نفسه .

14- طارق حسن، النقد الأدبي بين الثقافة العربية والمنهج الغربي، مجلة الكويت ، العدد 363، ص/.96

15- د.غسان غنيم –مقال على الرابط :

www.esyria.syledomaxus/index.ph.p.t.p:storis.

16- المرجع نفسه (من المقال).

17- المرجع نفسه (من المقال).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

18- د. حسين مجيدي، النقد الأدبي العربي المعاصر وتأثره بالناهج الغربية " دراسة وتحليل" مجلة إضاءات نقدية السنة الثانية العدد الثامن 2012 ، ص/02.
19- إبراهيم الرومانى أوراق في النقد الأدبي ص/104.

المراجع الورقية :

01- أحمد بو حسن ، العرب وتاريخ الأدب، دار تويقال للنشر – المغرب الطبعة الأولى.
02- هيو سلقرمان، نصيات- بين الهرمنبوطيقا والتفكيكية.ترجمة حسن نظام وعلي حاكم صالح، الطبعة الأولى 2002. الدار البيضاء المغرب
03- محمد الصادق عفيفي، النقد الأدبي الحديث، مكتبة الرشاد- دار الفكر الطبعة الأولى .
04- النقد الأدبي الجزائري الحديث، عمار بن زائد – المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر-1990.
05- ثريا عبد الفتاح ملحس، القيم الروحية في الشعر العربي- دار الكتاب اللبناني- بيروت.
06- الدكتور، عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب – دار النهضة العربية بيروت- لبنان .
10-إبراهيم رومانى – أوراق في النقد الأدبي ، دار الشهاب للطباعة والنشر- الجزائر – الطبعة الأولى 1985م .
14- طارق حسن، النقد الأدبي بين الثقافة العربية والمنهج الغربي، مجلة الكويت ، العدد 363.
19- د. حسين مجيدي، النقد الأدبي العربي المعاصر وتأثره بالناهج الغربية " دراسة وتحليل" مجلة إضاءات نقدية السنة الثانية العدد الثامن 2012.

المراجع الإلكترونية :

1- د.غسان غنيم –مقال على الرابط :
www.esyria.syledomaxus/index.ph.p.t.p:storis
02- د.صالح بن سعيد زهراني، العقل المستعار بحث في إشكالية المنهج في النقد الأدبي العربي . مقال من الانترنيت على الرابط : https://uqu.edu.sa/majalar/shariamag
03- حسن دخيل عباس الطائي، الوصول الرومانسية في الشعر الجاهلي { شعر التأمل} مقال من الإنترنت على الرابط .
www.uobqbylon.edu.iq/.../serves_showarticde.aspx?...

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com